

هذا الكتاب من الجزء الأول وفي بعض الجزء الثاني كلاما من كلام العقلاء البلغاء، ومذاهب من مذاهب الحكماء والعلماء، وقد روينا نوادر من كلام الصبيان والمحرمين من الأعراب، ونوادير كثيرة من كلام المجانين وأهل المرة من الموسوسين، ومن كلام أهل الغفلة من النوكي، وأصحاب التكلف (...) فجلنا بعضها في باب الإتعاض والاعتبار، وبعضها في باب الهزل والفكاهة، ولكل جنس من هذا موضع يصلح له. ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل». (٢-٢٢٢).

فما بال الجاحظ يتحدث إلينا بهذا الحديث وليس في السياق ما يقوم اعتراضا عليه في شأنه، بل ليس فيه ما يكون له سببا أو مسببا، وإنما هو إقحام لا يسلم من الإحالة لأنه مردود بذاته، فما يتحدث عنه بوصف الجد هو في مقلنونه هزل محض وما جاء على الهزل لا يبعد أن يتطابق ومدلول الجد.

وبنفس المراوغة يستهل الجاحظ الجزء الرابع: «ذكر بقية كلام النوكي والموسوسين والجفاة والأغنياء وما ضارح ذلك وشاكله، وأحببنا أن لا يكون مجموعا في مكان واحد، إبقاء على نشاط القارئ والمستمع» (ص ٥).

ولكن المراوغة تتضاعف ويركب بعضها بعضا فتؤول إلى خدعة مزدوجة تكشف بنفسها عن نفسها لمن تبصر أمرها، فلو كان الذي أسسه الجاحظ من المراوغة في المضمون والسرد منهجا بذاته يتحرك التأليف في الأدب بحركته، وينصاع إلى مقوده، لما كان وقفا على حجم كمي دون آخر، ولما جاء فريضة من فرائض المطولات دون ما قصر من أسفار التدين،